عبقرية الإمام الشافعي

الأم :

رأوا يوماً أحمد بن حنبل يسير خلف فتى يركب بغلته فسألوه يا أبا عبد الله تركت حديث سفيان بعلوه وتمشي خلف بغلة هذا الفتى وتسمع منه ؟!! فقال الإمام أحمد للسائل : لو عرفت لكنت تمشي من الجانب الآخر

يقول الإمام أبو حامد الغزالي فى كتابه الإحياء لا يقرأ أحد للشافعي ولا يعجب بعبقريته , يقول المستشرق مرجيلوث وهو مستشرق معاد للإسلام ولكنه يتوقف عند كتاب " الأم " للشافعي بإنبهار ويصف الشافعي بالعبقرية الحادة والرجل الذى لا مثيل له !

سئل ابن حنبل عن سبب كثرة دعائه للشافعي , فأجاب : يا بني كان الشافعي رحمه الله تعالى : كالشمس للدنيا وكالعافية للناس .. فانظر هل لهذين من خلف !

كان يقول الإمام ابن حنبل أيضا :ما مس أحد بيده محبرة إلا وللشافعي رحمه الله في عنقه منة !

ولد محمد بن ادريس الشافعي بغزة سنة خمسين ومائة يوم وفاة الإمام أبو حنيفة فقال الناس مات إمام وولد إمام , هاجر والده من مكة لغزة بسبب الفقر والحاجة للعمل مات الوالد بعد ولادة الشافعي بفترة قصيرة , كان عصر الشافعي عصر الأوج والإزدهار والترف ودخول الأمم للإسلام , ظهور مدرسة الرأى وبداية معركتها مع مدرسة الحديث , ظهور الجماعات الشيعية ومعركتهم مع السنة , وحركات الزندقة ثم ظهور المحدثين ثم مدرسة أبو حنيفة ومدرسة مالك , كان كل صباح يظهر أمر جديد فى بلاد المسلمين يفرقهم أكثر وأكثر , على صعيد أخر ظهرت حركة شعرية كبيرة بقيادة أبو نواس وأبو العتاهية والأصمعي وغيرهم , أسست علوم اللغة وسجلت التواريخ والأخبار , يكفي أنه عصر هارون الرشيد بكل ما نسمع عنه , وعصر الأمين والمأمون وصراعهما

ولد الشافعي فقيراً يتيماً غريباً , وتكفلت أمه نشأته .. فى الحقيقة إن أم الشافعي من فصيلة أمهات العظماء , كأم صلاح الدين وأم سفيان الثوري وأم البخاري وأم مالك وأم بن حنبل ,وهذا يجعلني

أخبركم بمقولة قرأتها أتذكر إنها لأنيس منصور تقريباً تقول عن المرأة إنها إما فوق الفضيلة لدرجة تماس درجات الملائكة وإما تحتها فى أسفل سافلين , إن المرأة عندما تؤمن بفكرة ما وبقيمة ما تماس الملائكة فيها , إن أم الشافعي هي من لها الفضل الأول فى أن تخرج للعالم الإسلامي قامة كبيرة وعملاقة كالشافعي , إن أم الشافعي تؤكد لك إنها لو كانت أماً لأي شخص غير الشافعي سيكون الشافعي أيضاً .. كيف ؟

أنظروا كيف توصي صبياً لم يبلغ السابعة من عمره قائلة : يا بُني مات أبوك ، وإننا فقراء ، وليس لنا مال ، و إني لن أتزوج من أجلك ، وقد نذرتك للعلم ، لعل الله يجمع بك شمل هذه الأمة.

إن المتكلمة امرأة كادحة فقيرة , أنظر كيف تحدث إبنها الذي لم يبلغ السابعة من عمره بعد ؟
وأنظركذلك كيف تريد أن تجمع شمل الأمة بالعلم , إن مثل هذه المرأة تحتاج أن تتوقف طويلاً أن تتأملها وتدرسها , وتري أن المرأة الواعية تستطيع أن تقيم الأمم وتنهضها

يحكى الشافعي عن أمه أنها شهدت عند قاضي مكة هي و امرأة أخرى ، فأراد أن يفرق بينهما امتحاناً لهما وحتى لا يتفقا على شهادة واحدة حسب وجهة نظره ، فقالت له أم الشافعي هذه المرأة الفقيرة العادية : ليس لك ذلك .. ليس لك ذلك لأن الله تعالى قال [أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا ٱلْأُخرَى]البقرة : 282 .. فذهل القاضي ولم يتكلم وخضع لرأيها

ذهبت الأم بصغيرها لمكة من أجل العلم , لم يهتم المعلمين بالشافعي لفقره , فقالت له الأم : إذا وجدت المعلم يعلم أبناء الأغنياء فاجلس بجوار الغني ، و استمع دون أن تشعر المعلم بأنك تضيق عليه يقول الشافعي : ففعلتها مرة و اثنين و ثلاثا ، أدخل بأدب فلا يشعر بي المعلم ، وأستمع له حتي أجدت ما يقوله ، فكان المعلم إذا قام ، أحل محله و أشرح لهم ، فيأتونني ويقولون : يا شافعي اشرح لنا هذه . وكان الشافعي فى ذاك الوقت لم يبلغ السابعة من عمره بعد !

كان الشافعي لديه مشكلة فى شراء الورق , كانت أمه تأخذ الصدقة ورق لأجل إبنها , وكانت تذهب لديوان الوالي فتجمع بواقي وفضلات الأوراق لأجل إبنها وتجمع عظام أكتاف الذبائح وتنظفها لأجل أن يكتب عليها ابنها !

كان الشافعي يؤمن بأمه أشد الإيمان , كان يرجع لها فى كل أمر , كان يقطع كل عهد يعاهدها عليه, ذات يوم خرج الشافعي في أحد أسفاره ضمن قافلة ، و إذا بقطاع الطريق قد خرجوا عليها يريدون من فيها ، فسألوا كل واحد منها عما معهم من مال و متاع ، فأنكروا أن يكون معهم شئ ، وعندما حان الدور بسؤال الشافعي قال لهم : إن معي مالاً ثم أخرجه من جعبته ، فتعجب قائد اللصوص من مسلكه وفعله ، و قال له أيها الفتي ما الذي حملك علي فعلك فقد كنت من الممكن أن تنجو بمالك ؟

فقال له الشافعي لقد عاهدت أمي علي الصدق و وفاء لعهدها صدقتكم القول و الحديث . فقال قائد اللصوص متعجباً : أمك غائبة و تحفظ عهدها ! ثم أعلن توبته و قال له : إن عهد الله أولى بالوفاء

حفظ الشافعي القرآن وأتقنه وأتقن تجويده وهو ابن سبع سنين , ثم حفظ الموطأ والحديث والتفسير وحل المسائل والفتاوي وهو ابن عشر سنين , كان يفتي و له خمس عشرة سنة وقد أجازه مسلم بن خالد الزغبي مفتي مكّة و عالمها وأستاذه ، حيث قال له : (أفتِ يا أبا عبد الله فقد آن لك أن تفتي)

أرسلته أمه للصحراء ليتقن اللغة والفصاحة فقالت له تلك المرأة الأرملة : يا بني إنك ستبقي هناك سنوات ، و إني أخشى عليك أن تسأم، ولذلك أوصيك بالرياضة ، حتى لا تسأم ، و حتي لا تختلف عن أقرانك. يقول فلما ذهبت كان همي في أمرين : الرمي و تعلم العلم ، فحفظت عشرة آلاف بيت من الشعر ، وكنت في الرمي أصيب الأهداف جميعاً.

كان للشافعي النجابة والذكاء , والمقدرة العظيمة علي الحفظ حتى أنه كان يضع يده علي الصفحة التي لا يريد حفظها حتي لا يختلط حفظه بينها وبين الصفحة المجاورة , كان ينظر للصفحة فيحفظها , إضافة لإنفتاحه على كل العلوم وهذه ميزة ليست بأحد غيره وحسن صوته وتجويده , كان إذا تعلم اللغة قالوا إنه متفرغ للغة فإذا تعلم الرمي قالوا إنه لا يفعل شيء سوي الرمي , وقال أحد العلماء سمعت الشافعي في التفسير فقلت هو أعلم الناس فيه فسمعته في الحديث فقلت هو أعلم الناس فيه فسمعته في الفقه فقلت هو أعلم الناس فيه ؟ وقد شهد الأدباء كلهم لفصاحة الشافعي غير العادية ومنهم الجاحظ

بعدما عاد من سفره أقترح عليه علماء مكة " أساتذته فى الماضي " أن يأتى للمسجد ويفتي الناس , رفضت أمه هذا الإقتراح وقالت بعد أن تتعلم علم مالك وأبو حنيفة !

من هذه المرأة ؟ وما أدراها بعلم مالك وأبو حنيفة إلا ما قد سمعته من بعض العامة ؟ إنه لا يتوفر لأحد دعم كدعم أم الشافعي ولا يصير الشافعي أليس كذلك ؟ , وإن الأرملة التى تقوم بمهام الأم والأب معاً أثر كبير علي وليدها وصبيها , إن هذه العبقرية المتقدة التى سنتعرف عليها خلال مقالات عدة ما هي إلا نتاج هذه المرأة التى نستطيع أن نرفعها كنموذج للمرأة الواعية , لم ترضى بالزواج بعد زوجها وفائاً وقد نذرت ولدها للعلم ليجمع شمل الأمة , وإن لدى هذه المرأة من الوعي ما يجعلها تؤمن بما تقوله وتفصح به لإبنها وإن لدي الشافعي الإيمان بأمه ما يجعله لا يخيب أملها , لقد كانت فقيرة وأرملة وعادية لم تكن صاحبة ثقافة وقراءة , ولكنها كانت صاحبة فطنة وذكاء ووعي , لم تكن تملك العلم ولكنها ملكت الوعى , جعلت لإبنها الصغير اليتيم رؤية كبيرة ونبيلة , لا تسأل كيف لتلك الفقيرة الأرملة لم ترتعد ولم تضم إليها صغيرها وتكتفي بأن تعده فحلاً يجلب النقود ولكنها أرادت له بوعيها ورؤيتها وصدق إيمانها بأن يكون الشافعي , لقد كانت واعية بما فيه الأمة من تشرذم فكرى وصراعات ,كانت تريد أن يكون ولدها الصبي الأسمر اليتيم الحل , إن سر المرأة يكمن فى قلبها , إينما وجهت شعورها وعاطفتها لشيء إلا وحققته وأنجزته أما صاحبة القلب الفارغ والوعي الزائف فلا تخرج للمجتمع والأمة شيئاً , عرفت ما ينقص ولدها وما تريده لولدها , شغفها وإيمانها جعلت ابنها يتحايل ليطلب العلم يتذلل له , كانت واعية بأن العلم هو الغنى الحقيقي الذي تريده لإبنها الفقير , كانت تكرر علي ولدها أن يجمع به الأمة وهو فى الخامسة من عمره , إن هذه الفقيرة التي تجلس أمام الفرن تخطط لجمع شمل أمة مترامية الأطراف بواسطة ابنها الشاب الصغير , محمد بن ادريس الشافعي !

قام الشافعي بتأليف 140 كتاباً ، منها كتاب عنوانه : رياضة الرمي , وقال النووي أن الشافعي ابتكر كتباً لم يسبق إليها، منها: أصول الفقه وكتاب القسامة وكتاب الجزية وكتاب أهل البغي وغيرها. وله مؤلفات كجماع العلم وأحكام القرآن ومسند الشافعي وديوانه الشعري و كتب في الأنساب والفراسة والفقه

أنظر لأم الشافعي وتخير لأبنائك أماًُ مثلها , مثلها فى الوعي والرؤية والشغف ونبل الغاية , وأنتى حاولي أن تمتلكِ الرؤية منذ الحين لولدك ولنفسك , حدثيه حتى قبل أن يأتي عما تريديه منه , عن غاية نبيلة كم امرأة مثل أم الشافعي اليوم تحمل هم الأمة وتدعم ابنها بالطريقة الصحيحة , فما فضل والد الشافعي عليه بعد ولادته إلا تخيره لأمه , وقد كان الشافعي واعياً لدعم أمه الكبير , ولعل هذا السبب

الأول لتسمية موسوعته الفقهية العبقرية بكتاب " الأم " , لقد ماتت هذه الأم العظيمة التي تجتمع مع أم علي بن أبي طالب في النسب , عندما سمعت بصيت إبنها يبلغ الأفاق وأنه بالفعل جمع شمل الأمة , وتحققت به نبوئة رسول الله الذى قال : عالم قريش يملأ الأرض علماً

الطالب

بعبقريات العقاد هناك فصل شبه ثابت أسمه مفتاح الشخصية ينظر نظرة كاملة لتصرفات الشخصية ويضع مفتاح يفسر كل تصرفاتها وأحوالها , فما مفتاح شخصية الشافعي ما وجدت إلا أن الشافعي عاش طالباً تلميذاً مجتهداً طوال عمره , الشافعي منذ نعومة أظافره يقضي أيامه في العلم والتعلم , مع أن أستاذيته وعبقريته ظهرت منذ البكور فقد كان يدرس لزملائه مالا يفهموه عن المعلم وكان ذلك إتفاقاً ضمنياً للمعلم ليتركه يدرس مع أولاد الأغنياء , إلا أنه برغم هذه الأستاذية لم يترك أبداً مكان الطالب التلميذ , حتي وهو شيخ ضمن الشيوخ وقامة بين القامات كان أسلوب درسه للطلاب أن يتحدث بضع دقائق في الموضوع ثم يفتح مجال الأخذ والرد مع طلابه فيتعلم منهم ويتعلمون ولم يكن يستخدم هذا الأسلوب غيره , إنه لم يتنازل عن مكانة الطالب الذي يبحث عن العلم في كل مكان

إنه طالب نهم شغوف لا يسمع بعلم جديد إلا ذهب ليستطلعه ويحتويه , وطالب مجتهد لا يسبقه أحد في عمله وذكائه ونجابته , لقد عرض عليه شيوخ مكة الفتيا وهو ابن ثلاثة عشر سنة في سن يعتد من سن الطفولة في زماننا هذا , وقد عرض عليه مالك أن يجلس مكانه ويعلم الناس ويفتيهم !

كان الشافعي يتحسر علي ترك الأمة علوم الطب , لقد ذهب أثناء رحلاته العلمية الكثيرة لكبار الأطباء اليهود وتعلم علي يديه وقال ذات مرة أن المسلمون ضيعوا ثلث العلم وأوكلوه للنصاري واليهود وأنه لا يري بعد الحلال والحرام أنبل من الطب وتعلمه

وكان يقول لطلابه دائماً : إِنَّمَا الْعِلْمُ عِلْمَانِ: عِلْمُ الدِّينِ، وَعِلْمُ الدُّنْيَا، فَالْعِلْمُ الَّذِي لِلدِّينِ هُوَ: الْفِقْهُ، وَالْعِلْمُ الَّذِي لِلدُّنْيَا هُوَ: الطِّبُّ.

لم يعرف أحد الشافعي ولايعجب بعلمه ونجابته وذكائه , كان الشافعي لا يترك أحداً يتوسم فيه المعرفة والعلم إلا حدثه وأخذ ما عنده ولقد تعرف علي الذي أواه فيما بعد بمصر من خلال هذه الأحاديث بمسجد المدينة , كانت حياته كلها للعلم والدرس وكلامه كله عنه وجهده كله فيه ,لم يعرف عصر الشافعي مثل الشافعي ولا عصر ما بعد الشافعي , لم يلتهم أحد كل هذه العلوم في هذه المدة بينما كان أقرانه يتعبهم الإنشغال بالحديث والفقه فقط فمابالك بذلك الطالب الدؤوب الذى يقضي حياته كلها بحثاً عن العلوم في كل مكان كأم تبحث عن ولدها , وتتعجب بينما الشافعي برحلة اليمن وهي رحلة عمل ووظيفة نهره أحد العلماء الكبار وقتها وقال أكلما تعلم أحدكم العلم وجائته وظيفة يتركه ويذهب إليها فمن سيبقي للعلم , ولكن هذا العالم لم يكن يعي تماماً من هو الشافعي , إن في رحلة العمل هذه مع كل مشاغلها وأحداثها تعلم فيها الشافعي الفراسة وفقه الاوزاعي والليث بن سعد وتعلم علي يد الإمام الصادق وكانت له فيها مناظرات شهيرة , إنك تتعجب كيف ينظم الشافعي حياته ليتعلم كل هذا العلم لم يسمع بأحد بان لديه علماً ما إلا ويذهب إليه فلقد تعلم فقه الليث أكثر من مرة من أكثر من شخص , لا يترك صاحب علم إلا وأخذ ما عنده من العلم فهو أعتاد ذلك منذ الصغر عندما ذهب إلي أمه يبشرها أنه صار يتعلم مع أولاد الاغنياء علماً دسماً قال : يا أماه تعلمت الذل للعلم والأدب للمعلم

إن الشافعي مع أنه عندما جلس للفتيا بمكة والتدريس , كان أصغر شيوخ مكة بل أصغر شيوخ زمانه , حتى أن أقران بن حنبل كانوا يتسائلون كيف له أن يترك الشيوخ ويتعلم علي يد هذا الفتي الشاب , هم بالطبع لم يعرفوا الشافعي وعبقرية الشافعي لم يكن لديهم أية فكرة أن ذلك الشاب عنده من العلم ما يفوق شيوخ زمانه كلهم بلا ريب , حتي جذب لحلقته الكبير والصغير

إن الطالب النجيب الشافعي لا يتعلم علماً إلا كما يجب أن يكون فلقد قال لتلاميذه مرة إنه كان مع العلم يمارس رياضة الرمي فكان عندما يرمي يصيب عشرة من عشرة , ثم سكت فرد عليه التلاميذ وقالوا وأنت والله في العلم كذلك

ولقد شهد له المستشرقين بالعبقرية حتي أنهم تعجبوا من أين أتي الشافعي بأصول القياس والمنطق ولم تكن هناك حركة ترجمة للفلسفة اليونانية بعد !

لقد كان الطالب متأنياً , في تحصيله ودرسه ومناظراته لم يكن بالغر ولا المغتر ولم ينفعل في مناظرة واحدة من مناظراته ولم يكن يتحدث في مناظراته إلا بتأني وبروية وبمنطق وبوجه بشوش , قد يشيط المناظر

ويصرخ بينما الشافعي أمامه مبتسماً بشوشاً متسامحاً يطلق الحجة تلو الحجة فتفحم الجميع , لقد سبه مرة أحد المتعصبين عندما لم يجد مع حجته حجة ولم يجد لذكائه هنة ولا لحصن علمه ثغرة , غضب تلاميذ الشافعي وهموا بضرب المتعصب ولكنه ببشاشة ووجه لم يعرف الإنفعال والكراهية أبداً سامحه ومنع التلاميذ من إيذائه , لماذا لا يكره ولا يغضب ولا ينفعل أليس بشراً ولكنه أيها السادة طالب مشغول عن هذه التراهات إنه لا يكف عن التعلم والبحث والفحص , دائماً مشغول بالعلم

فهناك مثلاً قصة واردة عندما دعاه تلميذه ابن حنبل للمبيت بداره فذهب الشافعي بعد العشاء لفراشه مسترخياً هادئاً متأنياً أما ابن حنبل ذهب للصلاة والعبادة فسألت ابنة الإمام أحمد هل هذا هوالشافعي الذي يدعوا له أبوها ويتحدث عنه كثيراً فتعجبت أنه لا يظهر منه ما يظهر من ابيها من العبادة والقيام فقد قال الشافعي لابن حنبل أنه وقد يكون مسترخياً إلا أنه يحل مسائل وقد فتح الله عليه في هذه الليلة فقط بحل أربعون مسألة فقهية , وهذه القصة مع المأخذ علي تفاصيلها إلا أنها بها الكثير من الصحة من ناحية أن الشافعي يحل المسائل وهو مسترخياً ومتأنياً , إن الشافعي في سفره فقط يحسب المسافات بعدد ختماته للقرآن , فهو يحسب أن المدينة تبعد عن مكة بمقدار ستة عشر ختمة تقريباً , فإن تعامل الشافعي مع الوقت غامض ويحتاج لوقفة كيف لهذا الفتي الصغير أن يحوذ كل هذه العلوم وبرغم إنشغاله بأحداث ووظيفة وأكل عيش إلا أنه لا يكف عن التعلم ثم إنهم يقولون إنه عندما كان يتعلم الرمي يظنون أنه لا يفعل شيئاً بحياته سوي الرمي إنه مع كل ما يفعله إلا أنه عندما يفعل شيئاً يتقنه كما يجب ان يكون

عندما ذهب لأول بعثة علمية تحت رعاية أمه للصحراء لتعلم اللغة لم يكن أول من فعلها وسافر لتعلم اللغة من القبائل , ولكنه الشافعي وحده هو الذي نبغ لم يكن هو الوحيد الذي درس التفسير ولكنه هو الوحيد الذي نبغ لم يكن وحده يتعلم الرماية ولكنه هو من ضمن القلة الذين يصيبون عشرة علي عشرة طوال الوقت , ولقد قال أحد العلماء لا يتكلم الشافعي في أمر إلا وحسبناه أعلم الناس به !

لقد كان الشافعي منذ الصغر يرغب أن يكون أديباً شاعراً ,نهره أحد العلماء الكبار وقتها وهو يدندن بالشعر قائلاً : أين أنت يا فتي قريش من الفقه !

مع التأهب العالي لعلوم الدين وتنقية الأحاديث ومواجهة أسراب الأحاديث المفخخة المبثوثة عن عصابات منظمة وكذلك عن الفقه والمسائل الجديدة والأمة المترامية الأطراف والصراعات المحتدمة بين

أهل الحديث الملتزمين بالنص وأهل الرأي المتحررين من النص , لم تكن الأمة بحاجة للشعر كانت بحاجة للعلم , للمنهج , للقواعد , للحل

كان الشافعي ينشد قائلاً : ولولا الشعر بالعلماء يزري .. لكنت اليومَ أشعرَ من لبيدِ

مع أنه تمليذ مالك لم يأخذ برأي شيخه في علم الفراسة وكراهيته وتعلمه , ولم يأخذ أيضا بكلامه عن الشعر وقاله , حتي انه كان يتسامر مع أحد أصدقائه العراقيين بالشعر قال له لا تخبر احداً بهذا الشعر لأهل الحديث فإنهم يضيقون به

لقد ابتهج الإمام الشافعي كثيراً عندما رأي أن تاج الجوامع جامع عمرو بن العاص يعتبر الجامع الوحيد الذي يدرس الناس فيه الأدب والقصص والحكاية , خصص الشافعي بدرسه للطلاب وقتاً للشعر والأدب ولم يكن يفعلها فقيه غيره كما أنه خصص دروساً للطب والفراسة والمتنوعات, لقد أختلف أهل العربية واللغة بمكة بمجلس الشافعي فتسائل أحد الشيوخ لما يتردد هؤلاء علي المجلس ولا يعرف عنهم أنهم يتعاطون العلم والفقه فأجاب القوم أنهم يحضرون درس اللغة بحضرة الشافعي , ولم يكن من المعهود أن يكون هناك درساً للغة فقد كان العرب يحبون أن يستمعوا للغة الشافعي , وقد أحب مالك لغة الشافعي كثيراً , وقد وضح الشيخ أبو زهرة سبب تأثر الأعراب بالشافعي بسبب إجتماع فصاحة اللغة وحسن الصوت والتجويد , وقال أبو زهرة أيضا ما رأيت أحداً إلا وكتبه أكبر من مشاهدته، إلا الشافعي، فإن لسانه أكبر من كتبه مع جودة كتبه وعظمتها فكيف بمشاهدته , كأن الشيخ أبو زهرة يحسرنا أن جلسات الشافعي لم تصور وترفع علي اليوتيوب

لقد قال العلماء تعلموا اللغة من الشافعي , وحمد أحدهم أن الشافعي لا يكتب كتبه بلغته بل بلغة مبسطة وهو يقصد هنا أن لغة الشافعي قوية للحد الذي لن يستطيع الناس إدراكها , إن الشافعي الطالب النجيب كان يملك عقلاً سابقاً لعصره فإن أكبر فقهاء عصره عندما قرأوا موسوعته قال أحدهم آه لو يصغر حتي نفهمه , وقال الآخر : إنني كلما قرأت كتاب الشافعي أتعلم شيئاً جديداً كل مرة , وقد راجع وصحح الأصمعي وهو أديب الأدباء شعر قبيلة هذيل كله علي لسان الشاب الصغير الشافعي !

دائم البحث والتعلم لا يمضي وقت بحياة الشافعي لا تشغله فكرة تشاركه صحوه ونومه , فذات مرة شغله تفسير كلمة دساها في أية " قد خاب من دساها " ذهب للصحراء ليعرف معناها فلم يصل لجواب شافي ثم طاف علي المفسرين وأهل القرآن ولم يهدأ حتي وصل أنها بلغة السودان معناها أغواها فرضي بهذه الإجابة , والشافعي لا يشبع من العلم ففي رحلته للمدينة للتعلم علي يد الإمام مالك وهو من أكابر علماء الأمة تهابه الملوك والخلفاء طلب منه هارون الرشيد أن يأتي ليعلم ولديه فأرسل له بان العلم يؤتي إليه ولا يأتي , كان الشافعي لايرضي بدروس المغرب لمالك وكان يريد المزيد منه فتوسطت أمه عند القرشيين فتوسطوا للشافعي من والي مكة لوالي المدينة أن يرضي الإمام مالك بملازمة الشافعي له فذهب الشافعي مع الوالي لدار مالك وكان لمالك هيبة يخشي أن يواجهه أحد وكان له أسلوب حياة معروف وخلوة مقدسة لا يرضي أن يقطعها أحد خلوة العلم والتفكر وقد ألتزم الشافعي فيما بعد بهذه الخلوة العلمية

قالت الجارية للوالي رد الإمام مالك له بأنه لو كان يريد جواباً لمسألة فموعد الدرس بعد المغرب فقال لها الوالي أنه أمر هام , فخرجت الجارية بكرسي وخرج خلفها الشيخ ذو الثمانين سنة مالك فجلس وقرأ رسالة الوالي ,فرمي الرسالة بوجه الوالي صارخاً : أوصار علم رسول الله يؤخذ بالوسائط ؟

فنظر الشافعي الشاب للوالي فوجده قد تراجع من هيبة مالك خلف الشافعي وصار الفتي القرشي بمواجهة هيبة مالك وعينيه الحادة بمفرده فأخذ الشافعي يذكر له أصله المطلبي الموصول بنسب رسول الله صلوات الله عليه وهذا من ذكاء وفطنة الشافعي في التحدث مع الناس ففي لحظة الغضب المالكية من أجل علم رسول الله توجه له الشافعي في مقدمة كلامه أنه من نسب رسول الله , ثم قص عليه قصته , قد يكون الشافعي قص عليه تعلمه بمكة وبسعي أمه لتعليمه لأنها باعت اثاث المنزل ليرتحل للتعلم علي يد مالك , ثم قرأ الشافعي الموطأ علي مالك فأستحسن مالك قرائته فقال له زدني فقرأ فقال له زدني فقرأ وهكذا قبل مالك بالشافعي وقبل أن يغلق الباب نظر للفتي وقال له : يا محمد إنه سيكون لك شأن وأي شأن إن الله تعالي قد ألقي علي قلبك نورا فلا تطفئه بالمعصية

عندما شعر الشافعي بأنه أكتفي من علم مالك وأخذ ما عنده لم يبقي في ملازمته التي قد يحسده عليها الكثيرين من طلاب العلم ولكنه أستأذن منه أن يذهب للعراق لإستطلاع علم أبو حنيفة المدرسة المضادة لمالك ومالك لم يرفض بل قبل وأكتري له بنفسه الراحلة , وقد كانت بغداد جامعة العلوم , لقد

كانت تعج بالعلم والمتعلمين , وكما قلنا إن الشافعي الطالب يحب العلم فبالتالي سيحب بغداد بلد العلم وقد قال الشافعي إنه يشعر بالسفر في كل مكان إلا في بغداد فإنه لا يشعر أنه مسافراً لبلد بعيد أو غريب , وهذا طبعاً من حبه للعلم وجامعة العلوم , وعندما عاد من رحلته للمدينة ولمالك جلس بين الطلاب دون أن يعرفه مالك وهو يسأل طلابه ولا يعرف أحد الإجابة فأخذ الشافعي يملي طالب بجواره الإجابات ويقولها فتعجب مالك وسأل التلميذ من أين لك هذا العلم وقد كانت المسائل لا يعرف حلها كل طلاب المدينة أي كل طلاب مدرسة الحديث فقال الطالب هذا الذي بجانبي فأقترب مالك ورأي الشافعي فأحتضن الشيخ ذو التسعين صديقه الشاب ذو الثلاثين أو أقل وقال له : آن لك أن تجلس مكاني يا محمد

في هذا الصدد نحب أن نقول ملحوظة عن لطف وذوق الشافعي إنه لا يتعامل مع أحد إلا ويجعله صديقه مهما أختلفت الأعمار أنه رجل عبقري في إنشاء الصداقات مع معلميه ومع الناس.

حتى في نضوجه وعلوه وتأسيسه لعلم الفقه , عندما دخل مصر سأل عن معلميها فذكروا له السيدة نفيسة وقد شغف الناس بالتعلم علي يديها عندما فرغت مصر من الليث بن سعد فهمت السيدة بالرحيل عن مصر لأن الناس تشغلها عن أورادها وأذكارها وجمعها لزاد ميعادها فخصص الناس يومين فقط للتعلم علي يدها , كان الشافعي ضمن طلابها يتعلم منها كلما ذهب للفسطاط وكلما جاء , كان يتعلم منها الحديث والفقه ما لم يتوصل إليه , وقد أوصي أن تصلي عليه السيدة يوم وفاته .

إن الشافعي طلب العلم لم ينزل ببلد لا يأخذ من معلميها ما عندهم حتي يحويه , كان يطلب العلم حتي مماته , وكان يري أنه بهمته في طلب العلم هو ملكاً فالقوت لا يعدم ولكنه الجهل المر يذل صاحبه , أنشد يقول : همتي همة الملوك ونفسي .. نفس حر ترى المذلة كفراً

أنظر لما طلب الشافعي وأنظر لنفسك وهمتك فما طلبتم وما أخذتم من الأيام , سننهي المقالة ونتجنب عيوب الإطالة ولنا مع الشافعي مرة أخري إطلالة مع سره وسر رحلته الكبير , وقبل أن سننظر ماذا قال عن معلمه الأكبر وهو السفر

تغرب عن الأوطان في طلب العلى .. وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

تفريج هم، واكتساب معيشةٍ، .. وعلمٍ، وآدابٍ، وصحبة ماجد

وقال

سافر تجد عوضاً عمن تفارقه ...وانصَبْ فإن لذيذ العيش في النصب

إني رأيت وقوف الماء يفسده ... إن ساح طاب وإن لم يجر لم يطب

والأسدُ لولا فراق الأرض ما افترست ... والسهم لولا فراق القوس لم يصب

فكم نحتاج الحياة علي الطريقة الشافعية , وكم نحتاج حياة الطالب ونهمه وشغفه وحياته , حياة من يشغل نفسه وفكره وباله بالعلم والتعلم والتفكر والفحص والتدقيق والأدب والشعر والثقافة والفقه والعلم , فكما قال الإمام علي الناس موتي وأهل العلم أحياء

فراسته

عندما كان يعمل الشافعي باليمن , لم يكن العمل والوظيفة معطلاً للطالب الشافعي عن التحصيل فلا ينفك أن يبحث عن المعلمين والكتب هنا وهناك ويتعلم من هذا وذاك , وقد قرأ كتب الفراسة وتعلمها وكذلك التنجيم وهما علمان شائكان , لا يحبهما الفقهاء بل يحذران الناس منهما , ومنهم مالك إمام المدينة , فإن لم يتشدد فقيه ما في الفراسة فبالتأكيد سيتشدد في التنجيم وهناك أحاديث تنهي عنه , ولكن الشافعي كان لا يري في العلم محرماً وبالتأكيد كانت له وجهة فقهية وحجة قوية, فتعلم الفراسة وتفوق بها فمع فراسة الفطنة ملك فراسة العلم , والفراسة علم عربي أصيل ومعروف وأشتهر به الصحابي الجليل عمر بن الخطاب لولا أن عمر كان صاحب سجية نقية وفطرة عبقرية , إنما الشافعي نمي نفسه بالعلم وللعلم , فمن قصصه في هذا الباب أنه كان يعرف عمل المرء من أول وهلة ويعرف عدد زوجاته ويعرف بلادهم ومواطنهم دون أن ينبثوا بكلمة واحدة , ومن أشهر قصص الشافعي مع الفراسة أنه في طريقه إلي مكة مع المسافرين أستقبله رجل وأضافه , وجد الشافعي أن للرجل علامات اللئيم , ولكنه لم يجد منه إلا الكرم فأطعمه أحسن طعام وكلمه ألين كلام بل وأخذ دابته وعلفها له وسأله كل حين عن حاجته فقضاها له , فشعر الشافعي بالآسي من تضييع الوقت في علم كالفراسة وقد ظن اللئم في رجل كريم كهذا , فلما هّم الشافعي أن يغادر قال للرجل إن جئت مكة فاسأل عن الشافعي وسأكرمك ,

وما إن أنهي الشافعي حديثه وهم بالمغادرة أحمر وجه الرجل وقال : يا هذا ما رأيت رجلاً بوقاحتك أكرمك وأكرم دابتك، وأنزلك في منزلي وتجلس على فراشي وأهيئ لك الطعام والشراب وتقول لي هذا الكلام, فهل أنا خادم أبوك ، أنقد لي كذا وكذا من الدراهم يقول هذه الدراهم ما يأخذ إلا عُشر ما طلب، أنقد لي وإلا والله لن تذهب وسأفعل بك وأفعل، يقول فعظمت محبتي لكتب الفراسة.

وكان من أقواله المأثورة في علم الفراسة : إحذر الأعور والأحول والأعرج والأحدب والأشقر والكوسج ، وكل من به عاهة (خاصة من ولد بها) في بدنه ..

جاءه رجل مرة ليسأله عن مسألة شرعية ، فقال له الشافعي رحمه الله : أنت نسّاج ..؟؟ ، فأجابه الرجل نعم ! وجائه أخر فسأله أنت من صنعاء ؟ فأجابه نعم ؟ وتعمل حداد , فأجاب الرجل بإنبهار : نعم نعم

روى عن الشافعي أنه أشترى له طيبا بدينار ، فسأله الشافعي : ممن أشتريت ..؟؟ ، فقال : من الرجل العطار الأشقر الأزرق .. فقال الشافعي : أشقر وأزرق ..؟؟ ، إذهب ورد العطر ، ماجاءني خير قط من أشقر !

ومن عيوب الفراسة التي لاحظتها في تصريحات الشافعي عنها أنها تعمم , فليس كل أشقر بهذا اللئم وليس كل أولاد زواج الأقارب حمقي وليس كل من لديهم عاهة غير مأمونيين كما أنه ليس كل صاحب جسد ضخم شجاع وليس كل صاحب جسد نحيف جبان !

وقد روى عن الشافعي أنه كان بعلم بالتنجيم وحظك اليوم حتي تركه بعدما أخطأ التقدير والحساب فيما ستنجب له زوجته ومدي صحته وبقائه , فتاب عن التنجيم وذكر ذلك في قصيدة له يرفض التنجيم ويحط من قدر العلم به , طبعاً هذا يؤكد لنا ما نكرره بأن الشافعي لا مثيل له , لا مثيل له بي طلاب الفقه وبين الفقهاء , عقلية متفردة مستقلة لها نظرتها الذاتية , النهم علي العلم والتعلم بكل أشكاله فهو من تعلم العلوم بداية من الفقه واللغة و الطب حتي التنجيم

السر

كل شيء كان يحرض علي ظهور شخص مثل الشافعي , عندما ولد الشافعي في نفس العام التي مات فيها إمام بغداد ومدرسة الرأي الكبري أبو حنيفة في غزة هاجرت به أمه الكادحة وهي توصيه أنها نذرته للعلم لعل الله يجمع شمل الأمة به , لقد كان في نفس التوقيت امام مصر الليث بن سعد يخطب ويفصح عن أمنيته آه لو جمع أحدكم علم التفسير وعلم اللغة لعل الله يجمع به شمل هذه الأمة

لقد كانت بغية جمع شمل هذه الأمة عامة , كان الجميع ينتظر الإمام الشافعي

لعل الليث بن سعد لم يقابل الشافعي أبداً ولكن له دوره في حياة الشافعي , الليث هو الإمام الذي شعر بحتمية جمع شمل الأمة من خلال اللغة , لقد أدرك أن أصل سوء التفاهم هي اللغة , لقد كان يبشر دائماً بالرجل الذي يجمع الله به شمل الأمة

لماذا لم يجمع الليث نفسه شمل هذه الأمة لقد كانت أفكار الليث قريبة لما أنتجه الشافعي فيما بعد من علم غزير تحمل الأمة جميله حتي يومنا هذا , لقد وضح الشافعي فيما بعد السبب قائلاً إن الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به , لقد كان الليث أفقه الأمة ويحمل مشروع جمع الشمل ونواة الفقه الإسلامي المنهجي ولكنه لم يقم به أصحابه , لقد ضاعت كتبه وعلمه من قبل أعدائه وكذلك أصحابه الذين لم يقوموا به

لا يشبه الشافعي أحدا كما يشبهه الليث ولعل هذا ما جعل تلامذة الليث يتجمهرون حول الشافعي منذ أن هبط مصر , لقد وجدوا ما بشرهم به أستاذهم وحاولوا ألا يكرروا ما فعلوه مع الليث , فلم يضيعوا الشافعي ولا فقهه , لأنه ليس بالعلم الذي يضيع ولا يفوت

إن الليث قدم خدمات خفية للشافعي لم يدركها الليث ولا الشافعي , من صاحب هذه العلاقة بين الفقيهين بينما هما لم يلتقيا , لقد درس الشافعي فقه الليث أكثر من مرة وأعجبه كثيراً هذه القواعد المبدئية التي لدي الليث وأعجبه نقده , لقد كان الليث هو الفقيه الوحيد الذي يحسن الشعر , لقد كان الشافعي أيضا منذ صباه يحب الشعر ويدندن به , كانت أمه تمنعه لأنها لا تريده إلا عالماً ولا يصلح الشعر للعلماء , كذلك كان مالك يرفض الشعر , لقد أوقف أحد كبار الصالحين الشافعي وهو صغيراً هو يدندن بالشعر فقال له : أين أنت من الفقه

لقد كان العلماء يرعون النشأ علي حب العلم وتعلم الفقه , لقد كانوا يدركون أن الأمة أحوج ما تكون لكتيبة من العلماء والفقهاء , وفي رواية أن الليث جاء للحج فخطب بأمنيته المستمرة بأنه يتمني أن يجمع رجل التفسير وعلم اللغة فيجمع الله به شمل هذه الأمة ونصح الشباب بأن يتعلموا اللغة علي يد قبيلة هذيل , يبدو أن النبأ وصل لأم الشافعي فتسامحت مع صبيها أن يذهب للصحراء ويتعلم علي يد قبيلة هذيل الشعر واللغة , بالطبع لقد أسدي الليث خدمة جليلة للشافعي دون أن يدري

عندما أكتفي الشافعي من علم مالك أحب أن يستطلع بعض العلوم وفقه أبو حنيفة بالعراق , فقبل مالك وأكتري له الراحلة قال له الشافعي : أتكتري لي راحلة يا امام وأنت فقير مثلي , كأنه يقول لا داعي لهذه التكلفة أنا معتاد علي السفر , ولكن الإمام مالك قال بأنه أستقبل هدية من أحد الفقهاء , إنه الليث بن سعد !

في المرة التي أراد أن يذهب لبغداد مرة أخري ولكن لمدة أطول لم يكن لديه من المال ما يكفيه , لقد كان يعاني الفقر كما يعانيه طيلة حياته , والحياة ببغداد تحتاج للمال , ماذا تفعل يا محمد بن ادريس؟ , إنه أخر مرة كان ببغداد بقرية ما لم يستضيفه أحد مع أنه غريب لرثة ثيابه حتي أنه قال :

علي ثياب لو يباع جميعها *** بفلس لكان الفلس منهن أكثرا

وفيهن نفس لو تقاس ببعضها *** نفوس الورى كانت أجل وأكبرا

سعي القرشيين لدي والي نجران بموسم الحج أن يصحب الشاب القرشي حامل العلم ليعمل معه , أجرت الأم المنزل وهاجرت مع ولدها لليمن , نهره العلماء علي تركه للعلم وذهابه للوظيفة ولكن أمه بالتأكيد لم تسمح له أن يترك العلم , لقد تعلم في اليمن مع انشغاله العلوم الكثيرة , بل إنه تتلمذ علي يد الإمام الصادق , والإمام الصادق هو أستاذ أبو حنيفة ويسير علي مذهبه أغلب الشيعة ,وقد توافق مذهب الشافعي مع مذهبه في نواحي كثيرة , لقد كان الإمام الصادق حراً كريماً غزير العلم وحسن الخلق , كان يحارب الظلم في كل مكان ويقاوم الذهد السلبي ويحاربه وقد تعلم الشافعي منه الكثير , ولقد أوصت أم الشافعي إبنها أن يتعلم عنده , لقد كان الإمام الصادق يشبه الشافعي أيضا كأن الشافعي هو رجل جمع شمل الأمة وصفات علمائها , لقد كان الإمام الصادق يجتمع مع الشافعي في الإنفتاح علي العلوم الذين

لا يتوفر في الفقهاء , لقد كان الصادق كيميائياً وفيزيائياً وحكيماً وفلكياً يكفي أن الإمام الصادق هو من تتلمذ علي يديه من يطلق عليه الآن أبو الكيمياء جابر بن حيان , قد كان الليث بن سعد أيضاً منفتحاً وله مؤلفات جغرافية عن مصر والنيل , ولم يكن يشبههم إلا الشافعي الذي تشكل فقهه من فقههم في جوانب كثيرة ومنها أخذهم بالقياس والرأي فلقد كان الإمام الصادق متشدداً في الأخذ بالقياس أما الليث يحاول أن يجد منطقة وسط بين التشدد في القياس والتشدد في الأخذ بظاهر النص , تلك المنطقة التي أكتشفها الشافعي فيما بعد

لقد عين والي نجران الشافعي قاضياً ووظفه بأكثر من وظيفة ليعينه علي الرعايا , لأول مرة يقترب الشافعي من الواقع العملي ويترك الخلوات والكتب والمسائل والتفكير والتأمل والمناظرات والمناقشات , لأول مرة يسعي بين الناس ويحكم بينهم ويتعامل معهم ويخطب فيهم وينصحهم ويحل مشاكلهم , وكان الشافعي علي غير عادة أسلافه في تلك المناصب فهو يرفض التملق وينحو للعدل بكل ما يملك ولا يخشي في الله لومة لائم , لقد أحبه أهل نجران وصار له شعبيته بينهم , لقد كان الشافعي يرفض ظلم الوالي في أحكام كثيرة ويقول فيها رأيه , بل كان يخطب ليبين للناس أن هذا لا يجوز ولا يصح , كان يريد الوالي التدخل في عمله وأن ينهي هذه الضجة , ولكن الشافعي لم يقبل , لقد ظن والي نجران أن ذلك الشاب القرشي الذي جلبه من الفقر للوظيفة لن يعض اليد التي تمتد له , ولكن الشافعي كان له مبدأ في الحياة من ناحية الفقر وهو فقر العلماء اختيار وفقر الجهلاء إضطرار , إنه فقير لأنه متفرغ للعلم والتعلم ولكنه يستطيع كسب المال علي كل حال والعيش في هذه الدنيا أما الفقراء حقاً أولئك الجهلاء المضطرون , إنه غير مضطر أن يستمر في الوظيفة , إنه أصلا قبل بالوظيفة لتتوفر له الفرصة فيما بعد أن يذهب لبغداد ويتعلم بها أما وقد ذهبت الوظيفة فلا بأس

لم يكن يستطيع أن يتخلص الوالي من هذا الشاب بطريقة هادئة , لقد صار زعيماً شعبياً أو كاد أن يكون , إنه يرفض أوامر الوالي ويخطب في الناس عن العدالة والرحمة , لقد أرسل الوالي للخليفة هارون الرشيد بأن هناك رجل من قريش يتزعم حركة من العلويين , وقد كان العباسيين يقتلون العلويين بالظن , ولكن لم يأمر الخليفة هارون الرشيد قتلهم بل أمر بجلبهم إليه لسمع حجتهم !

كان يستطيع أن يأمر الخليفة بقتل أولئك الخارجين المارقين فلم نكن نسمع بالشافعي اليوم ؟

لقد حدد الوالي الشافعي في الرسالة وكأنه يوصي عليه , بأن ذلك الشاب القرشي إن ما يقوله بلسانه يعمل ما لا تستطيع السيوف عمله !

يا تري ما شعور أم الشافعي في هذه الأثناء , هل صحبت ابنها مكبلاً مع نفر من العلويين إلي بغداد , لقد كان يطمع الشافعي أن يذهب لبغداد بعدما يوفر بعض المال ليتعلم هناك , أما اليوم فيذهب إلي بغداد مكبلاً إلي حتفه , ياللأقدار

يحكي الشافعي ويقول : أدخلنا على هارون الرشيد عشرة عشرة وقد مضى اكثر الليل ...فجعل يقيم منا واحد واحد فيتكلم من وراء الستر فيأمر بضرب عنقه حتى انتهى ذلك الي !!!

بين الشافعي وبين الموت خطوة , ما شعوره ما حاله وفيما كان يفكر ؟ هل تعجب للحالة التي أحالته إليها الدنيا ولسانه , ولكن كيف للشافعي أن يرضي بالظلم والفساد , يا للأقدار

سأله الخليفة عن اسمه فقال محمد بن ادريس الشافعي , أمر هارون بقطع عنقه , فأخذ الشافعي يقول تمهل يا أمير المؤمنين هل تعرف مثلي مع هؤلاء ومعك , كأحدهما خلطه بنفسه فنفسه حرام وماله حرام إلا بالرضا وابنته حرام إلا بتزويجها فإنه كما يري له عليه يري له عليه نفسه

والآخر ينظر له نظرة الدون ويعتبر نفسه الأرقي نسباً والأعلي وان ابنته امته وانها تحل بغير زواج

فلمن تراني أتولي يا أمير المؤمنين

كأن هارون الرشيد لم يفهم ما يريد الشافعي قوله أو كأن الشافعي أراد أمراً يشغل به الخليفة , فأمر هارون بأن يعيد الشافعي ما يقوله حتي يستوعبه , فعرف أنه ذو نسب قرشي يتصل بالرسول ابن عم العباسيين كما يقولون وأنه يتولي أمير المؤمنين لأن العباسيين يرون القرشيين اخوانهم أما العلويين يقولون بأن بنو عبد المطلب عبيداً لهم

أكتفي هارون الرشيد بسجن الشافعي , لقد واجه الشافعي العلويين بالسجن ورأي أحدهم يتوسل ليكتب لأمه قبل أن يقطعوا عنقه , لقد تذكر الشافعي في هذه الأثناء أمه , هل سيخرج ولدها وأملها من هذه المحنة , لقد تم استدعاء الشافعي , لا يعرف هل سيذهب لقطع العنق أم لأمر يعلمه الله ,
دخل بقاعة الخليفة وجد هارون الرشيد مبتسماً له وبجانبه القاضي محمد بن الحسن الذي تتلمذ علي يده

الشافعي حينما جاء يستطلع فقه ابو حنيفة وقد كان محمد بن الحسن من حصيلة أسفار الشافعي ومعارفه , لقد شهد قاضي بغداد للشاب الشافعي وعلمه الذي لا مثيل له , عرف هارون قدر الشاب وأعتذر له بأن أعطاه من العطايا وخلع عليه الخلع , خرج الشافعي من جلسة هارون يتودد إليه الوزراء بالعطايا , فإنهم لم يروا الخليفة هارون الرشيد يعجب بشاب مثله , ولكن الشافعي كان يرفض العطايا إلا من الخليفة فقط

ها هي بغداد أيها الشاب القرشي , رغبتها فجئت إليها مقيداً رغماً أردت المال فهاهو المال يتاح لك وتتعزز فيه , أردت مصاحبة علماء بغداد والتعلم منهم فها أنت صرت من ضمنهم بين ليلة وضحاها , ياللأقدار

كان للشافعي مناظرات ومداولات وأمور كبيرة في العلم والفقه , لقد ذاع صيته وصيت علمه في الأفاق وأشير إليه بالبنان هذا الفقيه القرشي صاحب كتاب الرسالة , لقد عاد لمكة بعدما حوي كل علم العراقيين ومعه من كتبهم حمل بعير , لم يرضي العلم أن يصير الشافعي لغيره , لقد غار العلم أن تضيع نجابة الشافعي في مكائد ومتاهات السياسة , وها هي أمه تراه كما أرادت عالماً جليلاً يجمع الله به شمل هذه الأمة

دائماً كانت تقص عليه أمه تلك الرؤية التي رآتها عندما ولد الشافعي , لقد رآت المشتري يخرج من فرجها ويبلغ الأفاق حتي أنقض بمصر ثم وقع بكل بلدة شظية

لم يكن لمصر بريقها بعد وفاة الليث بن سعد وتمزيق كتبه وضياع فقهه , لقد صارت مصر لتلامذة يتامي لفقيههم الكبير يتتلمذون علي يد السيدة نفيسة , ولكن مصر تحتاج للشافعي تحتاجه اليوم وغداً , تحتاجه في عصر العباسيين وستحتاجه كثيراً عندما تصبح عاصمة العالم بعد إجتياح المغول ويجتمع بها كل الأجناس والأطياف والأفكار , من يجمع شمل هؤلاء غير الشافعي وفقهه

لم يفكر الشافعي في مصر أو الذهاب إليها قط , لكن هناك شيء خفي سيجعلها جهته وموطنه ومدرسته , عندما ذهب لبغداد لمرة أخري كانت الأمور مشحونة بالصراع السياسي , كان للشافعي قدره تجاذبته قوي السياسة كل يريده بصفه , لقد أقترح عليه الخليفة أن يتولي القضاء , إنه رفض العرض من

قبل أكثر من مرة من هارون الرشيد , إن المحنة القديمة تلوح أمامه , فهرع بالخروج عن بغداد فوراً , في هذه الأثناء جائته رسالة من مصر , لم يعرف أحد كيف أختار صاحبها التوقيت المناسب , هل كان يعلم الغيب , أم أننا بالفعل مازلنا قاصرين عن أسرار الطريق , فلا نعرف هل نحن من نختار دربنا أم دربنا هو من يختارنا , لقد جائت رسالة من مصر من رجل سمع بعلم الشافعي وقامته , لقد ذكره بأحاديثهم القديمة بمسجد المدينة فعادة الشافعي ألا يترك رجلاً يتنسم فيه العلم إلا ويتحدث معه ويأخذ منه ما يستطيع من علمه , فهو من حصيلة هذه المعارف , هذه الرسالة كانت بمثابة دعوة للحضور بمصر , إن مصر تتشوق للعلم , تتشوق لقامة كبيرة مثل الشافعي , شيء يعوض ما تركه الليث وغادر , وقرر الشافعي الذهاب لمصر وهو لا يعرف ما مصيره القادم فلا يعرف هل هو يذهب للفقر والقبر أم للفوز والغني , في الحقيقة الشافعي ذهب لهؤلاء جميعاً

قد وجد الشافعي بمصر تلاميذ الليث الذين حملوا منهجه وفقهه , لقد كانوا ينتظرون الشافعي لقد رأوا فيه الرجل الذي طالما تمناه الليث وبشر به

إن بحياة الشافعي توفيق من الله .. وسر خفي

إنه النور .. في زمن الصبا ذهب الشافعي لمعلمه وكيع يشكوه سوء حفظه فأرشده إلي ما ترشده به أمه كل يوم أن يبتعد عن المعاصي , إن أول ملحوظة كانت من الإمام مالك للشافعي بأول مقابلة قال يا محمد إن الله ألقي علي قلبك نوراً فلا تطفئه بالمعصية !

إن هذا النور القلبي والصفاء الروحاني وهذه السرائر النقية, لها من توفيق الله ما لا نستطيع إدراكه , يبدو أنه معني صوفي روحاني أكثر منه معني مادي نستطيع تحليله , إنه أمر روحاني بسريرة النفس يعبر عنه الصوفية بالكشف , قد عبر الشافعي عن ذلك النور خلال شعره قائلاً

روحي لنورك يا إلهي قد هفت ... و تشققت عطشا لهُ أركاني

و امنن بعفوك إن عفوك وحده.... سيعيد نبض النور في إنساني

الرسالة :

طالما ردد الشافعي مقولته المعروفة بأنه يشعر بغربة السفر بكل البلاد إلا بغداد فإنه لم يشعر بغربة فيها أبداً , وطبعاً الأسباب عديدة أولها أن بغداد بمثابة جامعة علمية تضم جماعة من صفوة علماء العالم بكل المجالات فكيف لطالب نهم للعلم أن يشعر بالغربة بينهم وهم مطلبه

عندما أتي الشافعي بغداد مقيداً ومن لطائف الله أنه لم تطال يد السياف رقبته , كان نصيراً لأهل الحديث ضد متعصبي أهل الرأي , كما كان في المدينة مناصراً للرأي ضد أهل الحديث , يقتصر أهل الحديث نظرهم علي الظاهر فيضيقون ويشددون ويحرمون ويتوسع أهل الرأي فيرفقون ويغربون ويفرطون , فكان الشافعي وسطاً بينهما , جمع شملهما , كانت مناظراته مع تلاميذ أبو حنيفة حدث بغداد الأبرز , كان يتعفف عن مناظرة محمد بن الحسن قاضي بغداد وخليفة أبو حنيفة لصحبته وكذلك لموقفه مع الرشيد ولكنها جرت مناظرات طويلة بينه وبين الشافعي , كان الشافعي فيها هادئاً وديعاً يضرب مثالاً في حسن الخُلق وأدب المناظرة واحترام الرأي المخالف وقد كان الشافعي لا يحب أن يرفض أن يطلق علي فلان كاذب بل يحب أن يقول حديث غير صحيح علي كلمة حديث كاذب , لم يعلو صوته قط .. لم تعلو حجة حجته , ألتف حوله الطلاب والعلماء وأخذوا بآرائه فسماه الناس ناصر أهل الحديث وشجعوه , ولكنه كان يأخذ بمنهج أهل الرأي في أشياء كثيرة وكان يصرح بأن الناس عيال علي أبو حنيفة في الفقه

ناظرهم في رأي مالك الإكتفاء بشاهد واحد مع أن الشافعي غير رأيه عن رأي مالك عندما ذهب إلي مصر ولكنه أقنع الحنفية بأن رأي أهل الحديث وجيه وله قدره , وكذلك له مناظرة ذكية عن الغصب مع محمد بن الحسن فأنتصر فيها بذكاء وحسن فطنة وحجة بالغة حتي أن تلاميذ محمد بن الحسن مالوا لرأي الشاب القرشي عنه , ولم يكن للعالم الكبير محمد بن الحسن غصة من هزائمه المتكررة أمام الشافعي فلقد قال الشافعي عنه أنه لم يري أحد يلزم الحجة ولا يكفهر وجهه كابن الحسن وهكذا هم العلماء وإيمان العلماء فبين مالك وأبو حنيفة التقدير المتبادل مع الإختلاف العلمي فلم يعكر صفو العالمين الجليلين إنما العامة وضيقي الأفق من الطلاب هم من حولوها لصراع مع أن صاحبي المذهبين لا صراع بينهما

غادر الشافعي بغداد عندما شعر بالإكتفاء وتلك ميزة لدي القرشي , فهو يجهز نفسه قبل الأمر المقبل عليه ويعرف قدر غرضه منه وإكتفائه ويعرف ما هي الخطوة القادمة بتوفيق من الله , فعندما سافر للإمام مالك كان يحفظ الموطأ قبل حضوره عنده وكذلك عندما شعر بالإكتفاء الجزئي عن علم المدينة ذهب كقطة تبحث عن وليدها , أخذ الشافعي يبحث عن العلم , لم تهمه التكلفة ومسافة السفر والسن , فلقد كانت لديه فلسفة مهمة جداً , أنه لا حياة له إلا للعلم , فهو فقير فقراً إضطرارياً لأنه يبحث عن العلم فلقد قال الشافعي لو تفرغت لتقشير بصلة ما حللت مسألة واحدة

عندما غادر بغداد وودعه العلماء والعوام , الطلاب والتلاميذ والمريدين , ذهب إلي مكة وهو يحمل من كتب بغداد حمل بعيرين تقريباً , لقد كانت القراءة نهم الشافعي , كتب الرسالة بمكة يقال أنه كتبها رسالة لعلماء بغداد عندما طلبوا له أن يوجز لهم قواعده في القياس التي شهد لها علماء بغداد , وكذلك يقال أنه مشروع الشافعي الأول بشكل رسمي , لقد قال الجاحظ عن كتاب الرسالة كتاب يعلم العقل , وقال عنه العلماء لولا أن الشافعي يبسطه لنا , وقال آخرين كلما قرأت في كتاب الرسالة تعلمت شيئاً جديداً , مما لا شك فيه أن كتاب الرسالة حقق ثورة فقهية عظيمة , هو نواة علم أصول الفقه , هو قاعدة ترسانة الفقه الإسلامي , من أهم كتب التراث الإسلامي علي الإطلاق , شهد له المستشرقين بأن الشافعي حقق المنطق الأرسطي بل وتفوق عليه قبل حتي حركات الترجمة للمنطق !

عندما شعر إمام مكة ومفتيها الشافعي بالإكتفاء من التدريس بالحرم بجوار مقام ابراهيم بنفس المكان الذي كان يدرس فيه حبر الأمة عبد الله بن العباس , ذهب مرة أخري لحاضرة الدنيا بغداد بعد تسع أو سبع سنوات , كم تغيرت بغداد مات الذين ناظر منهم الماضي , توفي ابن الحسن , وتغيرت الوجوه والشوارع والأذهان والأرواح , نشب صراع بين المأمون العجمي ضد الأمين العربي , نشأت الفتن بين العجم والعرب وعلت الشعوبية هذا فارسي وهذا تركي وهذا عربي , تفرق شمل الناس أكثر وأكثر يا شافعي , أستقبله بعض العلماء وبعض تلاميذه الذين درسوا علي يديه ومنهم بن حنبل وقد أستضافه بمنزله فترة فسعد بصحبته كما سعد الشافعي لمدة تسع سنين بصحبة الإمام مالك , تعجب العلماء من أعجوبة الشافعي , كتاب لأصول الفقه , الرسالة , فيه من الدرر الفقهية ما يجعل الكثيرين وصفه بالكنز وخاصة المتخصصين بالفقه , أختلفت المناظرات عما كانت عليه ببغداد الرشيد , فلقد أنتشر المجون والفتن وأزدحمت الطرقات وأختلطت الأفكار , وتزاحم مع الناس الزنادقة والمندسين , وقويت شوكة

المعتزلة مع فوز المأمون العجمي بالخلافة , وعندما نشبت المناظرات لم يجد أهل بغداد من يستطيع صد المعتزلة كناصر السنة وعبقري الأمة الشافعي وخاصة عندما أنتشر خبر رسالته الشافعية بسواد بغداد كلها , كتاب يؤصل للفقه ويضع القواعد كخارطة للطريق جعل الشافعي خارطة للفقه لينظم المسائل وحلها ويجعل للفقه مؤسسيته حتي يجتمع الشمل وتستفيد الأمة , نشأت بين المعتزلة مناظرات كثيرة بين الشافعي وبينهم , كانت حجة الشافعي كعادتها رزينة قوية مهذبة رائقة مستساغة , ومن هذه المناظرات ما ذكر بكتاب الحيدة للشافعي :

قالَت المعتزلة للشافعي :نحنُ لا نَأخُذُ إلاّ بظَاهِرِ آياتِ القُرآن الكريم، ولا نؤوّلُ.

فقَالَ لهم : مَاذا تقولونَ عن آيةِ :" تَعلَمُ ما في نَفسِي ولا أَعلَمُ ما في نَفسِكَ إنّكَ

أنت علام الغيوب" 116 / المائدة

قَالُوا نَأخُذُ بظَاهِرِها أي للهِ نَفْسٌ .

قال لهم: قال الله تعالى : "كُلُّ نَفسٍ ذَائِقَةُ الموتِ" . فانْقَطَعوا عن مناظرته وقالوا له : نُريدُ أن نجادِلَك بالأدلّةِ العَقليةِ فكَسرهُم أيضًا .

ازدادت حدة المناظرات , عرض المأمون علي الشافعي وهو عالم أمة الإسلام ومجددها وصاحب الرسالة .. القضاء , رفض الشافعي , كان المأمون يريد تقريبه منه , ليست نكبة البرامكة ببعيد لقد قتل المأمون أخيه وفاز بالملك والخلافة ثم تولي المعتزلة فصارت المناظرات عن ذات الله وصفات الله فلا مكان للفقه ولا معيشة الناس ولا شرع الله , صارت الأجواء تثير التوتر وترجع عليه ذكريات اليمن ومحنتها , ودع تلميذه ابن حنبل وعلماء بغداد وقرر المغادرة , فلم يعد ببغداد مكان له , هل يرجع لمدرسته بمكة أم ماذا ؟

في تلك الأثناء جائت رسالة من ابن الحكم بمصر وهو رجل قابله الشافعي بالمدينة عند الإمام مالك , فأقترح عليه المجيء لمصر , كم طابت مصر للشافعي وكم طاب الشافعي لمصر , كأن مصر كانت تتجهز للشافعي وكأن الشافعي كان يتجهز لمصر , كانت في هذه الأثناء تحت حكم والي هاشمي قرشي , وكذلك هناك تواجد للقرشيين كبير , سأل قبل السفر عن عالم مصر فقالوا الليث وقد مات ألا إنها

نفيسة العلم , السيدة نفيسة حفيدة الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم رضوان الله ورحمته , وقد كان أهل مصر بأمس الحاجة لعالم وفقيه يملأ فراغ الليث الكبير , عندما توفي الليث أنتشر المذهب المالكي أكثر , توجهت جموع طلاب الليث لعتبات السيدة نفيسة يسمعون منها ويتعلمون منها حتي أنها لم تستطيع المواصلة في ترضية كل الطلاب والناس والسائلين والرسائل , فهمت بمغادرة مصر لأن المقام فيها يعطلها عن أورادها فأتفق معها الناس ألا يأتون إليها إلا يومين في الأسبوع

كان الليث بن سعد فقيهاً وأديباً لا نظير له , قال عنه الشافعي أنه أفقه من مالك لولا أن أصحابه لم يقوموا به , كان الليث بن سعد صاحب مشروع جمع شمل الأمة الأول , لكنه لم يكتمل , كان يري أن المشكلة في اللغة فحفظ الليث عن الهذليين ونصح في كل مكان الطلاب بتعلم اللغة عن الهذليين فسمع الشافعي بالنصيحة فمكث عند الهذليين عشر سنوات تقريباً أتقن اللغة والشعر والرماية وعلم الأنساب , فصار حجة في الفصاحة ولبيب في الإفهام والإقناع وخبير بالأنساب ومعادن الناس , كان الليث دائماً يبشر طلابه بمن يجمع الله به شمل هذه الأمة , من جمع بين اللغة والتفسير , لقد أوجد الليث منطقة وسطاً فريداً عن مدرسة الحديث ومدرسة الرأي , مع أن الليث محدثاً ومن أهل الحديث إلا أنه لم يرفض الأخذ بالقياس , وقد خالف مالك وأبو حنيفة , لولا أن مذهبه لم يقم به أصحابه لصار من المذاهب المعتبرة جداً, وشخصية الليث قريبة مع الشافعي في أشياء كثيرة منها حب الشعر والإنفتاح علي العلوم وخلق المنطقة الوسط أو الوسطية التي تجمع بين المسلمين فلا إفراط ولا تفريط فلم يبدع هذا المعني البديهي للوسطية إلا الشافعي ولكن الليث كان يحوم حوله , من الملفت علاقة الليث بالإمام مالك وغيره من الفقهاء , فهو يرسل إليهم المال وما يطلبون وقد كان مالك يطلب من الليث فيرسل إليه الليث ولا يرفض له طلب , ومن العجيب هذا الود بين العلماء المذهبيين وتلك التعصبات بين الطلاب الصغار علماً وسناً وبين العوام , فالعلم نقيض التعصب فلا يتعصب لرأيه إلا جاهل وهذه قاعدة , وقد عرض عليه أحدهم أن يتولي حكم مصر بدلاً عن ولاة العباسيين الغلاظ فرفض بل وقد خاصم من عرض عليه هذا العرض حيناً , يقول العلماء المسلمين الليث مفخرة مصر ابن القليوبية من الموالي , الفقيه العلامة الذي قال عنه الشافعي جمعت له أربع خصال لم تجمع لعالم , العلم والعمل والزهد والكرم

عمل الليث بن سعد كذلك علي تذويب الجليد من ناحية تأثير الفتنة الكبري بأهل مصر وقد كانوا لا يحبون سيدنا عثمان بن عفان ويأخذون عليه المأخذ , فبين الليث فضله وسبقه وقد كان لليث منطقه

المقنع وقبوله عند الناس فتراجع الناس عن معاداة صحابي جليل كعثمان بن عفان , وسيبدد هذه القطيعة عندما يقدم الشافعي لمصر , فالمصريون يقدرون أهل البيت فالشافعي من أهل البيت وعلي بن أبي طالب ابن خالته وكذلك عثمان بن عفان حموه ونسبه إليه فلقد تزوج الشافعي في بداية رحلته مع الحياة حفيدة الصحابي الجليل عثمان بن عفان , كأن مصر تجهزت للشافعي وكأن الشافعي تجهز لمصر , كانت مصر موطناً بعيداً عن صخب مناظرات بغداد وجلسات المأمون وذكريات نكبة البرامكة وكذلك عن مكة وقد خلت من أمه وخلت من أهدافه , فصار الشافعي يطبق فلسفته وهي سافر فإن لذة العيش في النصب , وأتجه لمصر لأول مرة , جاء المبشر من قبل الليث بن سعد عندما قال : من يجمع علم اللغة والتفسير , ليجمع الله به شمل هذه الأمة وكذلك أمنية أمه أن يجمع الله به شمل هذه الأمة , وقد رأت أمه كما ذكر في كتاب تاريخ بغداد في ترجمته , أنها رأت المشتري يخرج من فرجها وينزل بمصر فيرتطم ويخرج شذرات تنزل بكل بقاع الأرض , وإن صحت الرؤية فقد تحققت فلقد صار مذهب الشافعي ومذهب الوسطية هو المذهب السيد بين كل المذاهب , فصار أتباعه السادة الشافعية , لقرون

أقام الشافعي عند أول قدومه لمصر عند أخواله من القرشيين , عرض عليه الوالي المبيت بمقام كريم عنده ولكنه رفض بتلطف , بدأ الشافعي حياته بمصر طالباً , نعم ذلك العالم الكبير أكبر قامة إسلامية في ذلك الوقت عاش طالباً لأخر لحظة , أندمج مع طلاب الليث فأحبوه وقدروه , سأل عن السيدة نفيسة العلم وهي حفيدة حسن العلم الرجل الذي فضل العلم علي السلطة والصراع السياسي , كم يحب العلم وأهله , أليس الشافعي هو من قال أحب الصالحين ولست منهم , فكيف بأهل البيت فهم أهله وكذلك لهم مع الرسول دم وشريان , فكان يسمع من السيدة نفيسة ويتعلم ويطلب منها الدعاء , عندما عرف الشافعي طريق تاج الجوامع مسجد عمرو بن العاص وفيه حلقات العلم للمالكية والحنفية , تجمع الشافعي وصار طلاب الليث طلابه ومريديه وقد وجدهم الشافعي مضطهدين مغلوبين علي أمرهم في الحياة الفقهية بين المالكيين والحنفية وقد كانت للمالكية الغلبة , شرع في دروسه وقد تنوع فيها علي غير العادة وقد كان هناك من تخصص للغة ومن تخصص للتفسير فرأوا أن الشافعي منذ صلاة الفجر حتي العشاء يقسم الأوقات بين كل علوم الدنيا , فأتسعت حلقته وسمي ذكره وعلت قبته وبانت كرامته , فلقد رأوا منه الفراسة العجيبة والأصول اللبيبة , ومع ذلك رأوه هادئاً رزيناً يضرب به الأمثال في حسن الخلق والتأدب , التأدب مع المخالفين والمعاندين ,لم يمضي وقت طويل حتي سحب الشافعي البساط بمصر من تحت الجميع , كما يفعله طوال حياته , كأن المصريين شعروا بأن الله أستجاب دعواتهم فرحمهم

من جماعات المتعصبين وصراعات المذهبين المالكي والحنفي إلي رجل من أهل البيت وزوج حفيدة سيدنا عثمان , يجمع بين اللغة والتفسير كما قال الليث , يحب الشعر كما كان الليث , يعرف الطب وذاك علم أشتهرت به مصر كثيراً فهي أصله , وقد كان الشافعي يقول بأن أفضل ما يتعلمه المرء علم الأديان و طب الأبدان , وقد كان يقول وما أقسى أن يضيّع الناسُ ألسنتَهم وأجسامَهم , يقصد اللغة والطب, قد كان للشافعي دروسه التوعوية الصحية فكان يرفض زواج الأقارب ويقول أنه ينتج الأولاد الحمقي وكذلك يحذر من السمنة ويقول لا يفلح سمين قط ولا يسكن العقل في الجسم الغليظ , وكان معجباً بقصب السُكَّر حتى قال لأهل مصر: لولا قصب السُكر ما أقمتُ ببلادكم , لفوائده الصحية , من العادات الصحية التي كان يعلمها للمصريين , عدم الإستحمام إلا بالماء الحار صيفاً وشتاءاً , كان يصف الأعشاب للمرضي الطارقين إليه فحكي بأنه كان له غلام أعشى لم يكن يبصر باب الدار، فأخذ له زيادة الكبد فكحلهُ بها فأبصر.

كان يحضر حلقته بعض العوام فأتسعت الحلقة أكثر بأناس لم يكونوا من رواد العلم كما فعل بمكة عندما حضر له الأعراب أهل اللغة , هكذا الشافعي موسوعة ينهل منها الجميع فكان ينصح المصريين ويقول : الفول يزيد في الدِّماغ، والدماغ يزيد في العقل وأكلُ اللحم يزيد في العقل ويحذر أن يأكل الناس لبيضاً مسلوقاً بليل أبداً، فقلَّ مَنْ أكله بليلٍ فسلِمَ , وقال تلميذُه حرملة: رأيتُ الشافعي ينهى عن أكل الباذنجان بالليل , من أكل الأترج ثم نام، لم آمنْ أن تصيبه ذبحة , نصح بأن يأكل المرء بعد الإستحمام ولا يأكل بعد الحجامة

وكان يردد أهل مصر هذه النصائح بإستمرار وقد أستمرت بشكل لاواعي ببعض المناطق حتي الآن :

قال : • أربعة تقوي البدن: أكل اللحم، وشم الطيب، وكثرة الغسل من غير جماع، ولبس الكتان.

• وأربعة توهن البدن: كثرة الجماع، وكثرة الهم، وكثرة شرب الماء على الريق، وكثرة أكل الحموضة.

• وأربعة تقوي البصر: الجلوس حيال الكعبة، والكحل عند النوم، والنظر إلى الخضرة، وتنظيف المجلس.

• وأربعة توهن البصر: النظر إلى القذر، والنظر إلى المصلوب، والنظر إلى فرج المرأة، والقعود مستدبر القبلة.

• وأربعة تزيد في الجماع: أكل العصافير، وأكل الإطريفل الكبير، وأكل الفستق، والجرجير.

• وأربعة تزيد في العقل: ترك الفضول من الكلام، والسواك، ومجالسة الصالحين والعلماء

وقد تواتر عن رئيس الأطباء وقتها أن الشافعي جلس يراجعه في الطب حتي ظن الطبيب أن الشافعي طبيب العراق ورد إلينا وليس الفقيه الذي يتحدث عنه الناس كل يوم

, تزوج الشافعي مصرية ونصح الجميع بتصريحه المشهور : من لم يتزوج مصرية فهو غير محصن وقد قال في تصريح أخر : ما للرجال مثل مصر من البلاد فلقد جئت إلي مصر كخصي لا أتحرك حتي تزوجت جاريتي دنانير " المصرية "

سحب الشافعي البساط عن المالكية وكبيرهم فتيان وهو شاب تعلم علي يد الفقيه مالك كان يحمل إليه حاجاته من مصر ويتعلم علي يديه حتي صار رئيس المالكية بمصر وكان فظاً ومتعصباً , وكذلك سحب البساط عن الحنفية وقد تكون تفتت كتلتهم فأنضم الكثير من الطلاب لحلقة الشافعي الكبيرة التي تضم الجميع وتسع الجميع لوقتنا هذا

فقد كان مع الفقه يقص الشافعي علي طلابه عجائب أسفاره , فلقد رأي بالمدينة المنورة عجائب منها , أنه رأي جدة عمرها 21 سنة , وقاضياً حكم بإفلاس تاجر في دين قيمته أربعة أرطال من نوي البلح , وشيخاً عمره تسعون عاماً طوال يومه واقفاً يعلم القيان الرقص والغناء فإذا جائت الصلاة صلي قاعداً !

ومثل هذه القصص ما كان يجعل للحلقة متعتها ورشاقتها علي النفس , قصده الطلاب من خارج مصر , صار لمصر إمامها وفقيهها , فقصده طالب من خرسان وسأله عن الإيمان ؟ فسأله الشافعي : ما تقول فيه أنت ؟ فقال الطالب : الإيمان قول ؟ فسأله الشافعي : كيف ؟ فتلي الطالب " الذين آمنوا وعملوا الصالحات " فصارت الواو فصلاً بين الإيمان والعمل

فأجاب الشافعي قائلاً : إذاً هل تعبد إلهاً للمشرق وإلهاً للمغرب فقد قال الله تعالي " رب المشرقين ورب المغربين " !

فتيان رئيس جماعة المالكية الذي حولها بتعصبه لعصابة لا علاقة لها للعلم تعرض مراراً للشافعي منذ أن لمع وأحاط به المصريين وأحاط هو بالمصريين , فهو لم يقبل أن يرد الشافعي رأي الإمام مالك بل أن

يتجاوز ويقول أن الإمام مالك بشر يخطيء ويصيب ويشكك في علم مالك فأخذ يسبه ويشيع جماعة المالكية بسفاهة وتفاهة الشافعي والسبب عدم علمه بالحديث , فرد عنه طلاب الشافعي بأن بن حنبل تلميذ الشافعي والشافعي تلميذ مالك والإثنين إمامان للحديث وقد قال الإمام أحمد بن حنبل ما من أحد يكتب في الحديث إلا وللشافعي عليه منة , كذلك أنتشرت مناظرات الشافعي ضد أهل الرأي بالعراق وكيف صار لقبه بناصر الحديث والسنة , فكأن طلاب الشافعي والعوام حتي ورواد السيدة نفيسة قالوا لمن يرموا الشافعي بعدم معرفته بالحديث : ألعبوا غيرها

نضج الشافعي نضوجه الأكبر بعدما صارت له مدرسة كبيرة بأرض مصر , طاب له المقام بمصر بجانب أخواله وحفيدة الحسن نفيسة العلم التي يتعلم منها ويزورها بإستمرار , وكذلك وجد له تلاميذ يقومون له ويناصرونه ويحملون علمه , فصار خطيب الجمعة المفوه بمصر فلقب بخطيب الفقهاء وقاضي الشريعة وخُفف الحمل عن السيدة نفيسة فتوجهت الرسائل للشافعي , رسائل في مسائل فقهية وكذلك مسائل حياتية وصحية وجنسية ولغوية وتربوية , ومن المفارقات أنه مازال هناك بمسجد السيدة نفيسة والشافعي صناديق الرسائل فلا زال الناس يراسلون الشافعي حتي يومنا هذا

فلقد سأله أحد تلاميذه قبل زوجته بنهار رمضان وقد كانوا قد أفترقا فجمعهما الله مرة أخري فقبلها فسأل الشافعي شعراً قائلاً : سلوا المفتي المكي هل في تزاور .. وضمة مشتاق الفؤاد جناح ؟

فأجاب الشافعي شعراً : أقول معاذ الله أن يذهب التقي .. تلاصق أكباد بهن جراح !

أخذ الشافعي يراجع كتابه الرسالة فيبدل ويغير ويعدل وكذلك آرائه الفقهية السابقة فغيرها فكتب لتلاميذه ببغداد أن ينشروا للناس بأن يأخذوا مذهب الشافعي وفكره مما كتبه بمصر , وقد بين بن حنبل للناس بأن ما كتبه الشافعي بمصر كان بمقام واستقرار فأحكم وراجع أما غيره فلم يحكمه ويقره تماماً

أتجه الشافعي بأصول الفقه بعدما بين كيفية الإستنباط وكيفية القياس عندما لا يوجد نص , بأن بين وأظهر إتجاهاً عظيماً بأصول الفقه والشريعة , إجماع الأمة , وكيف يصير الإجماع مصدراً رئيسياً من مصادر التشريع والفقه , و بأنه لا يشترط أن يوصف ما يجتمع عليه الصحابة فقط إجماعاً بل ما تجتمع عليه الأمة وعلماء الأمة !

راجع علي مدار خمسة أعوام آرائه علي مدار ثلاثين عاماً , من السفر والعلم والمواقف والأحداث , وجمعها بموسوعة فقهية أسماها الأم .

تمادي المتعصبين للمذهب المالكي بمصر بالتعرض للإمام الفقيه الشافعي وكذلك بالبدع والآثام التي يقترفها بعض الناس بالأندلس بأنهم يقدسون خرقة من خرقات منسوبة للإمام مالك , فأتجه الشافعي للنقد الفقهي , فعمل علي تمحيص مذهب الإمام مالك وخطأه في آراء كثيرة أتفق مع الليث فيها , كذلك نقد الإمام أبو حنفية وبين خطأه في آراء وإتجاهات عديدة , ثارت ثورة المالكية وخاصة بمصر بما كتبه الشافعي وتربصوا له

ذكر أهله بأنهم يقدمون المصباح بين يدي الشافعي أكثر من ثلاثين مرة , فيكتب ويكتب ثم ينادي جاريته بأن تشعل له المصباح , وقد كان الشافعي يتأمل بالظلمة والسكون فإن هم بالكتابة أشعل المصابيح وأحتفي بعلمه وأحتفي العلم به

ألف كتاباً عن قتال أهل البغي لم يكن يستطيع أن يؤلف مثله في بغداد وفيه يؤكد علي وجوب قتال أهل البغي ومن المعروف أن أهل البغي هم فريق معاوية بن سفيان وكان يقصد بذلك الأمويين ومن بعدهم العباسيين فالإثنين يكيلان آل البيت العداوة , وهاهي مصر تضم أهل البيت وعالمهم الذي بشر به الرسول صلوات الله عليه قائلاً : عالم قريش يملأ الأرض علماً

عارض تلاميذ بن حنبل الشافعي فقالوا لفقيههم بن حنبل إن الشافعي متشيع رافضي , تلك التهمة السمجة التي يرمي بها كل من أحب آل البيت , فقال بن حنبل : وهل أبتلي بقتال أهل البغي غير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ؟ كأنه يبين لهم أنه يوافق شيخه الشافعي حتي وهو فقيههم فكما قال ابن حنبل قديماً لزملائه لو عرفتم من هذا لمشيتم خلفه مثلي هكذا !

بدت أفكار الشافعي أكثر نضوجاً وتحرراً لم يعد يخشي المحنة , صارت لديه أمانة الفقيه فتكلم عن الشوري ووجوبها وتكلم بصوت عال يسمعه كل المالكية أن عمل أهل المدينة ليس حجة علي كل المسلمين , أسس مدرسة فقهية صار لها طلابها الحواريين الذين سيقومون بها ولن يكرروا تقصيرهم مع الليث , لم يكن الشافعي يحب أن يفوت العلم والتدريس , كان يُعلم ويتعلم لأخر لحظة حتي أن مرض البواسير كان يلم به فلا يستريح وعندما ينصح الأطباء بالراحة , يشير لطلابه قائلاً هؤلاء يحتاجونني ,

فكان يركب دابته فيسيل الدم علي الأرض وهو راكب , لا يستطيع أن يرتاح ويترك الوقت يفوت دون الكتابة والحلقة والخطبة والمسألة , تعرض له فتيان مراراً وتكراراً حتي أنه سب الشافعي سباً شديداً فذهب طلاب الشافعي كأنهم تعهدوا ألا يتركوا فقيههم المكي كما تركوا الليث حتي حرقوا كتبه وبددوا فقهه , فتجرؤ فتيان لم يعد يطاق فهو رجل فظ ومتشدد يوقف الناس بالطرقات ويتشدد معهم دون أية تثبت كما عند الشافعي فالتأني والتثبت أول سمات الفقيه فلقد وضع الشافعي السمات التي يجب ان تكون بالفقيه وكان أولها إتقان اللغة العربية والتثبت , ذهب الطلاب للوالي فلم يسكت فهرع يدعو اللهم أغفر تقصيري مع الشافعي , فأمسكوا بفتيان فطلب الوالي شهادة الشافعي بسبه له وضربه فلم يشهد الشافعي , قال الوالي : لو شهد الشافعي لقطعت رأسك , حلقو رأس فتيان ولحيته وجرسوه وهم ينادوا : هذا جزاء من يسب رسول الله ؟ وقد كان يتعوذ فتيان من هذه الفعلة

وقد أشعلت هذه الحادثة الغضب لدي المالكية أن يفعل ذلك بكبيرهم , لم يفكروا بسفه كبيرهم , ولكنهم حملوا غضب المتعصبين للمالكية من نقد الشافعي له ومعارضته لمسائله وقد صار للشافعي مدرسة وطلاب ومذهباً وستؤول لهم مع الزمان مسائل القضاء والولاية والحكم , وسيصيروا السادة الشافعية , كان الشافعي لا يريد تطور النقاش الحاد لهذه الدرجة , في يوم خرج الشافعي يتعكز بسبب مرضه بالبواسير تجاه حلقة الدرس , ضربه جماعة من المالكية ضرباً مبرحاً , ضربوا الإمام , ضربوا الفقيه , ولعلهم ضربوه في نفس الوقت الذي كان يجلد فيه تلميذه بن حنبل , هكذا هو التعصب الأعمي , فكما قال الإمام جعفر الصادق عندما سئل كيف يكون المرء أقرب أن يكون مشركاً ؟ فقال أن يتخذ رأياً فيبغض علي أساسه ويحب !

فقد الشافعي الوعي جراء الضرب والهجوم فحمله الطلاب إلي منزله , أفاق يتوجع من الآلام والنزيف , حتي قال له أحدهم بآسي : قوي الله ضعفك يا إمامنا ؟ فضحك الشافعي وقال له أتدعي عليَ يا هذا بأن يزيدني ضعفاً ؟ بل أدعو أن يذهب ضعفي وأن يقوي عافيتي , حتي وهو في هذه الحالة يُعلم ويصحح ويضع المناهج والأصول ويشق طريق الوسيطة لا إفراط ولا تفريط , المنهجية هي خلاص هذه الأمة , هذا ملخص حياة الشافعي , توفي الإمام جراء التعصب , جراء ذلك المرض الذي طالما حاول علاجه , قام تلاميذه بفقهه وأنتشر , سقطت بغداد بيد المغول فلجأ العالم للقاهرة وقد بنيت قلعة الجبل وصارت فيها كتيبة الإسلام وخلافته , أنتشر المذهب الشافعي فقهاً بشتي البلاد فكان معقله مصر وقد

صارت بلداً تلجأ إليه الشعوب ولم يستطع أن يجمع كل هذا الحشد من الخلق والمسائل إلا منهج الشافعي , فصار للمذهب الشافعي رئاسة المذاهب طوال القرون الإسلامية حتي العصر العثماني , صار موجوداً كأصول للفقه ولكنهم قدموا المذهب الحنفي , رحم الله الإمام القرشي , رحم الله من وضع علم أصول الفقه والمنهج الشرعي للفتوي , رحم الله إمام المصريين , رحم الله ناصر السنة والشريعة وآل البيت , رحم الله الشاب الطموح المكافح , الناجح الشافعي

ديوان الشافعي

من أراد أن يقترب أكثر من الشافعي فليقرأ شعره , ففيه خلاصة فلسفته , فلا ضير إن أتخذت ديوان الشافعي خطة حياتية تطبقها , ففيها راحة البال والخبرة العظيمة والبركة , فعندما تقرأ ديوانه ستجد أنك تعرف أغلب ما في الديوان فلقد صارت أمثالاً حياتية للناس يستشهد بها , فلقد صار الشافعي أسلوباً متكاملاً للحياة لا ينفك أن ينهم منه المرء إلا ويقول المرء هل من مزيد

قالوا : أن أبو نواس فقيه غلب عليه الشعر وأن الشافعي شاعراً غلب عليه الفقه !

خذوا الحكمة من ديوان الشافعي , خذوا الحياة وخبرتها من ديوان الشافعي , خذوا جوابكم علي ما يحيركم من ديوان الشافعي , خذوا الفصاحة واللغة من ديوان الشافعي , فكما أن كتب الشافعي تعلم الإنسان اللغة والعقل , فديوانه يعلمه الحكمة .. يعلمه الحياة !

وأختم بقصيدة من ديوان الشافعي تقول :

ما في المقامِ لذي عقلٍ وذي أدبِ مِنْ رَاحَةٍ فَدعِ الأَوْطَانَ واغْتَرِبِ

سافر تجد عوضاً عمَّن تفارقه وَانْصِبْ فَإنَّ لَذِيذَ الْعَيْشِ فِي النَّصَبِ

إني رأيتُ وقوفَ الماء يفسدهُ إِنْ سَاحَ طَابَ وَإنْ لَمْ يَجْرِ لَمْ يَطِبِ

والأسدُ لولا فراقُ الأرض ما افترست والسَّهمُ لولا فراقُ القوسِ لم يصب

والشمس لو وقفت في الفلكِ دائمةً لَمَلَّهَا النَّاسُ مِنْ عُجْمٍ وَمِنَ عَرَبِ

والتِّبْرَ كالتُّرْبَ مُلْقَىً في أَمَاكِنِهِ والعودُ في أرضه نوعً من الحطب

فإن تغرَّب هذا عزَّ مطلبهُ وإنْ تَغَرَّبَ ذَاكَ عَزَّ كالذَّهَبِ

وقصيدة أخري :

تعلم فليس المرء يولد عالماً ... وليس أخو علم كمن هو جاهل

وإن كبير القوم لا علم عنده ... صغير إذا ألتفت عليه الجحافل

وإن صغير القوم إن كان عالماً ... كبير إذا ردت إليه المحافل

تم .. ديسمبر 2015